ملخص كتاب: "قواعد نبوية؛ خمسون قاعدة في العلم والأخلاق والسلوك"

للدكتور: عمر المُـقْبِل

جنى المعرفة:

مبادرة هادفة لإثراء المحتوى الرقمي بمنتج ثقافي قيّم، يسهم بزيادة مستوى الوعي والمعرفة عن طريق تقديم الكتب الثقافية من خلال محتوى مرئي ومسموع لكي تكون عناقيد المعرفة بين يديك.



هذا كتابٌ هو صِنوٌ لكتاب آخر للمؤلف بعنوان:"قواعد قرآنية"، ومقصد كتابنا تسليطُ الضوء على جملٍ جامعة مما نَطَقَ به النبي صلى الله عليه وسلم، إذ أُوتِيَ نبينا – مما أُوتِي – جوامع الكلم؛ فاختُصِرت له المعاني العظيمة في أحرف معدودة!، لا سيما وكلامه تشريعٌ، وله هدايات، وهو مع القرآن وحي حيوي لمعالجة حوادث كل زمان ومكان، وهدايةِ الناس بهما؛ فعَظُمَتْ أهمية الوقوف معهما.

القاعدة الأولى: إنّما الأعمالُ بالنيات

من أعظم قواعد الإسلام، جعلها النبيُّ ميزانًا للأعمال الباطنة، كما أنه دالٌّ على أحد شرطي قبول العمل: الإخلاص والمتابعة. والنية هي: القصد للعمل تقرباً إلى الله، ويدخل فيها:

- نية العمل نفسه من صلاة وصيام وغيرها.

- نية المعمول له؛ أهو لله أم لغيره؟

ويتكرر ذكرها في كلام النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ النية تارة، وبالإرادة تارة، وبألفاظ مقارِبة أخرى.

**** والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين:**

أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض، وتمييز العبادات من العادات.

والثاني: تمييز المقصود بالعمل؛ أهو لله وحده لا شريك له، أم لغيره؟ وتجري (النية) في الأمور المباحة، والأمور الدنيوية. قال بعض الأئمة إن هذه القاعدة نصف الدين، ذلك أن الأعمال: إما ظاهرة أو باطنة، فالظاهرة دليلها حديث: (من عمل عملًا ليس عليه أمرنا)، والباطنة دليلها: (إنما الأعمال بالنيات). والأعمال تتفاضل بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص، ومما يعين على تحقيق الإخلاص: قراءة سير المخلصين، فإن النفس تنشط لذكر الصالحين.

القاعدة الثانية: من أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رَدّ

هذه القاعدة صنو القاعدة السابقة، ولهذا قال أبو عبيد القاسم بن سلام: "جَمَعَ النبي جميع أمر الآخرة في كلمة واحدة: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)، وجَمَعَ أمر الدنيا كله في كلمة واحدة: (إنما الأعمال بالنيات)، يدخلان في كل باب" ا.ه. وقوله: (فهو رَدّ): أي مردود عليه، باطل غير مُعْتَدّ به.

- **وهذه القاعدة تدل بمنطوقها** على أن كل بدعة أُحْدِثَتْ في الدين ليس لها أصل في الكتاب والسنة، فإن ذلك كله مردود على أصحابه. **وتدل بمفهومها**: أن من عَمِل عملا عليه أمر الله ورسوله، وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة من واجب ومستحب؛ فعمل مقبول وسعي مشكور.

وقوله: (في أمرنا) دليل على أن المحدثات في الأمور الدنيوية غير داخلة في حد البدعة، بل هي من الأمور المباحة في أصلها. والملاحظ المشاهَد أنه ما من بدعة تفشو إلا صارت سببا في طمس سنَّة من السنن أو خفائها، فإغلاق باب البدع من مظاهر الرحمة بالأمة حتى لا تتشتت بين آراء الرجال.

القاعدة الثالثة: الدينُ النصيحةُ

إن الدين كله – ظاهره وباطنه – منحصر في النصيحة! وهي القيام التام بهذه الحقوق الخمسة: (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم). وهذا الحديث من الأحاديث التي قيل فيها إنها أحد أرباع الدين، قال النووي: "بل هو وحده محل لغرض الدين كله! لأنه منحصر في الأمور التي ذكرها".

فالنصيحة لله: الاعتراف بوحدانيته، والقيام بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، والإنابة إليه كل وقت بالعبودية، والطلب رغبةً ورهبةً مع التوبة والاستغفار الدائم. **وأما النصيحة لكتاب الله:** فبحفظه وتدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه، والاجتهاد في العمل به. **وأما النصيحة للرسول:** فهي الإيمان به ومحبته، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه. **وأما النصيحة لأئمة المسلمين – وهم ولاتهم من الإمام إلى الأمراء والقضاة وجميع من لهم ولاية عامة أو خاصة – :** فباعتقاد ولايتهم، والسمع والطاعة لهم، وحث الناس على ذلك، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم، وتنبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس. **وأما النصيحة لعامة المسلمين:** فبأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان.

وهناك معنى دقيق في هذه القاعدة، وهو: التثبيت على الخير، وحثّ صاحبه أن يزداد منه، فإن كثيرًا من الناس ينحصر مفهوم النصيحة عنده في التنبيه على الخطأ.

القاعدة الرابعة: الحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ

الحلال البيّن لا يجوز التورع عنه، ولا يُمنع الناس عنه. والحرام البيّن لا يجوز الإقدام عليه، وتبقَى المنطقة المتوسطة بينهما منطقة الشبهات. **والحلال البيّن، هو:** الذي لا يختلف العلماء في حِله اختلافًا معتبرًا، كحل الماء والخبز والنكاح والبيع والشراء واللباس، ونحوه. **وأما الحرام البيّن، فهو:** الذي لا تختلف كلمة العلماء في تحريمه اختلافًا معتبرًا، كتحريم الخمر والزنا والرّبا والميسر والميتة وقطع الرحم وترك الصلاة ومنع الزكاة، ونحوه.

وأما المشتبه، فهو: الذي يقع فيه خلاف معتبر بين العلماء في حله وحرمته، أو يكون فيه شبهة معتبرة شرعا في حله وحرمته، كما يقع في بعض المكاسب التي يتجاذبها أصل تحليل وأصل تحريم كشربِ وأكلِ ما اختُلِفَ في حله وحرمته من المطعومات والمشروبات.

في قوله: (وبينهما مشتبهات): ينبغي أن يُعلم أن هذا الاشتباه ليس في أصل الدليل الشرعي، بل هو بالنسبة إلى الناظر في الأدلة – وهو العالِم المجتهِد – ، وإلا فلا يمكن أن يوجد حكم شرعي يشتبه على جميع العلماء! فإن الله لم يترك شيئًا يجب له فيه حكم إلا وقد جعل فيه له بيانًا، ونصب عليه دليلا، ولكن **البيان ضربان:**

١- بيان جليّ يعرفه عامة الناس.
٢- بيان خفي لا يعرفه إلا الخاصة من العلماء.

وهذه القاعدة أصل في القول بحماية الذرائع.

القاعدة الخامسة: من يُرد الله به خيرًا؛ يُفقهْه في الدين

ومما تدل عليه القاعدة: أن من لم يتفقه في الدين لم يرد الله به خيرًا، ولكن مما ينبغي إيضاحه هنا أن **الفقه في الدين على نوعين:**

النوع الأول: نوع لا يُعذر أحد بتركه، وهو الذي لا تصح عبادته ولا معاملته إلا به، فهذا من الفقه الواجب تعلمه على كل مسلم، ولا يعذر أحد بالتقصير في طلبه.

النوع الثاني: التفقه الذي يكون زائدًا على هذا، وهو فرض كفاية، ويدخل فيه تعلم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين كعلوم العربية بأنواعها، فمن أراد الله به خيرًا؛ فقهه في هذه الأمور ووفقه لها، ومن وُفّق لذلك فقد وُفق لخير عظيم.

وأصل الفقه وأساسه: معرفة التوحيد وما يكمله، والشرك وما يضاده أو ينافي كماله، ومعرفة معاني كلام الله الذي أنزله في كتابه على رسوله، ومعرفة معاني حديث رسول الله، ولهذا كان بعض العلماء يسمي فهم ما يختص بعلوم العقائد: الفقه الأكبر.

القاعدة السادسة: ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مال

إن الزيادة التي تحصل ببذل الصدقة قد تكون كمية وقد تكون كيفية، **فالكمية**: بأن يفتح الله لك بابا من أبواب الرزق لم تخطر في بالك، أو يخفف الله عنك دينا بتسخير الله للدائن. وأما **الكيفية:** فبأن ينزل الله البركة فيما بقي من مالك؛ فيحفظه، ويكفيك لقضاء أمورك، ولا يسلط عليه ما يستنفقه.

القاعدة السابعة: الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ

قاعدة تنبّه على حكمة من حكم الله في خلقه، وهو التشاكل والتماثل في الخير والشر، والصلاح والفساد، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت. ومن أهم الآثار العملية لهذه القاعدة أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح؛ فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك ليسعى في إزالته، حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه!

القاعدة الثامنة: إنما الطاعةُ في المعروفِ

قاعدة عامة في كل مَنْ تجب طاعته من الولاة والوالدَين والزوج وغيرهم، فإن الشارع أمر بطاعةِ هؤلاء، وطاعة كل واحد منهم إنما تكون بحسب حاله، وبما يقتضيه العرف.

ومن دلالات هذه القاعدة النبوية:

١- أنه إذا تعارضت طاعة هؤلاء الواجبة، ونافلة من النوافل؛ فإن طاعتهم تُقدَّم؛ لأن ترك النفل ليس بمعصية. فإن لم يكن تعارض وأمكن طاعتهم مع فعل النافلة؛ فإنه لا طاعة لهم في النهي عن النفل.

٢- أن الطاعة كغيرها من أوامر الشرع منوطة بالاستطاعة؛ فإنه إذا كانت الأوامر الواجبة بأصل الشرع معلقة بهذا القيد فكذلك طاعة هؤلاء الذين طاعتهم تبع لطاعة الله.

القاعدة التاسعة: لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ

يعتبر هذا المعنى من أهم قواعد الدين حتى قال أبو داود: "الفقه يدور على خمسة أحاديث"، وهذا الحديث منها.

من أهل العلم من قال: إنه لا فرق بين لا ضرر ولا ضرار، ومنهم – وهو الأشهر وعليه الأكثر – أن بينهما فرقا؛ فالضرر هو الاسم، والضرار الفعل، فالمعنى: أن الضرر نفسه منتفٍ في الشرع، وإدخال الضرر بغير حق كذلك. وقيل: الضرر أن يدخل على غيره ضررًا بما ينتفع هو به، والضرار: أن يدخل على غيره ضررًا بلا منفعة له به، كمن منع ما لا يضره ويتضرر به الممنوع. وقيل: الضرر أن يضر بمن لا يضره – أي: يقع منه الضرر ابتداء – ، وأما الضرار فبأن يضر من قد أضر به على وجه غير جائز.

- **وخلاصة القاعدة:**

١- أنه متى ثبت الضرر وجب رفعه، ومتى ثبت الإضرار وجب رفعه مع عقوبة قاصد الإضرار بما يليق به شرعًا.

٢- أن الضرر يزال، كالرد بالعيب وغيره مما يدخل تحت هذه القاعدة المأخوذة من الحديث.

٣- النهي عن المجازاة بأكثر من المثل.

٤- منع التصرف في ملك الإنسان بما يتعدى ضرره إلى الغير على غير الوجه المعتاد.

القاعدة العاشرة: الكذبُ يهدِي إلى الفجور

إن مَقْتَ الكذب مركوز في الفطر السليمة، وما زادته الأدلة من الكتاب والسنة إلا رسوخًا. وإن أشد أنواع الكذب وأعظمها جرمًا تلك التي يُكذبُ فيها على الله ورسوله، ثم ما يتعلق بأكل حقوق الناس بالباطل. كما أن الكذب يتضاعف جرمُه بحسب ما يؤدي إليه؛ فالكذب في المعاملات أشد من الكذب في مجرد الأخبار التي لا يتعدى ضررها، والكذب في باب الأعراض ليس كالكذب في باب الأموال.

القاعدة الحادية عشرة: مَن سَنَّ في الإسلام سُنة حسنة

لهذه القاعدة العظيمة آثارًا عملية ينبغي أن يُرى أثرها على المؤمن حين يسمعها، فمن ذلك:

١- القاعدة دعوة إلى التنافس في الخير، والتسابق في افتتاح مشروعاته النافعة.
٢- فضل الصحابة لأنهم سنّوا سنن الخير وافتتحوا أبوابه.
٣- التحذير من البدع في الدين.

٤- أن الوسائل لها أحكام المقاصد، سواء كان ذلك في الشأن الديني أو الدنيوي.

القاعدة الثانية عشرة: كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ خمرٍ حرامٌ

قاعدة هي أصلٌ من أصول الشريعة، والتي تؤكِّد حماية الشريعة لأحد الضروريات الخمس، وهو العقل. وكلمة (المسْكِر) في أصل تركيبها تدل على حيرة، فإن الشيء إذا أُغْلِق عليه وحِيلَ دون جريانه الطبيعي حَارَ، وكذلك تصنع الخمر. ومن أول ما يُذكر في علل النهي عنها ما ذكره محرِّم هذه الخمرة علينا، وهو رب العالمين العليم الخبير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّـهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾، وأنت إذا تأملت هذه العلة وجدتها في جميع المسكرات والمخدرات، فوجب طرد الحكم في الجميع، فكل ما صدَّ عن الصلاة وعن ذكر الله فهو داخل في هذا الحكم.

القاعدة الثالثة عشرة: مَن بَطَّأ به عملُه؛ لم يُسْرِع به نسبُه

إن النسب الشريف من نعمة الله على العبد إذا اقترن بالتقوى، إلا أنه لم يجعل له الشرع اعتبارًا في التفاضل مطلقا، إلا ما اتصل بنسب النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد قرر النبي أن كل امرىءٍ سيحاسب على عمله لا على نسبه بوسائل عدة، ورسّخه بعدة رسائل أرسلها في أوقاتٍ متفاوتة وأساليب متنوعة. ومن الأشياء اللافتة للناظر في تراجم الأئمة الكبار بعد الصحابة أن كثيرا منهم من الموالي، وكم نفع الله بهم من أمم!

القاعدة الرابعة عشرة: البرُّ حُسنُ الخُلُق

حسن الخلق يعم أمرين اثنين يجمعان الدين كله! وهما:

١- حسن الخلق مع الله، ولا يتحقق ذلك إلا بتحقيق أركان الإسلام والإيمان.
٢- حسن الخلق مع خلق الله، ويدخل فيه الإنس والجن والحيوانات والجماد.

ويحصل حسن الخلق تارة بكمال الفطرة منحة من الخالق، وتارة يحصل بالاكتساب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب.

القاعدة الخامسة عشرة: إنَّما الناسُ كالإبل المائة

إن المتميز والذي يصلح للقيادة والتأثير نادر في الناس مع كثرة عددهم، ومع كثرة من يدّعي ذلك أيضا، وهذا كحال الإبل في كثرتها، ومع ذلك فالنجائب والرواحل فيهنّ قلائل. وهذه القاعدة النبوية مشتملة على: **خبر صادق**، و**إرشاد نافع**. أما **الخبر** بأن النقص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل فيهم قليل. وأما

الإرشاد فإن مضمون الخبر يرشد إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

القاعدة السادسة عشرة: الظلم ظلمات يوم القيامة

إن (وضع الشيء في غير موضعه) هو المعنى الجامع لهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة. وهذه القاعدة لا تستثني أحدًا من الناس، ويعظم الوعيد ويشتد على من استغل قوتَه أو مكانتَه أو سلطتَه في ظلم العباد، فظلم العباد من أسرع موجبات الهلاك والخراب للأمم والمجتمعات، وفي التاريخ عبرة.

والظلم يشتمل على معصيتين: ١) أخذ مال الغير بغير حق، ٢) ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها. وأعظم الظلم الذي يقترفه العبد: ظلم نفسه بالشرك، كما قال الله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق؛ فعبده وتألهه فوضع الأشياء في غير موضعها. ويلي هذه المنزلة في الظلم: ظلم العبد لغيره.

إن الظلم لا يكاد يسلم منه أحد منا! فمنا المسترسل معه، ومنا المجاهد نفسه على تركه؛ ذلك أن الله تعالى وصف هذا الإنسان بأنه ظلوم جهول، **لكن السؤال: ما الموقف الشرعي الذي يقفه المسلم من أخيه؟** لقد أجاب النبي عن ذلك بأبلغ كلام وأوجز عبارة؛ فقال: "انصر أخاك ظالِمًا أو مظلومًا"، فقال رجل: يا رسول الله! أنصرُهُ إذا كان مظلوما، أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال: "تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره".

العادلون في أقوالهم وأفعالهم وتفكيرهم وأحكامهم ومعاملتهم مع الكبير والصغير، والقريب والبعيد، المنصفون الناس حتى من أنفسهم، إنهم – بعدلهم هذا – على نور يمشون به بين الناس.

القاعدة السابعة عشرة: وأَتْبِعْ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها

قاعدة من قواعد تهذيب النفس وتربيتها على المجاهدة والرقي في مدارج العبودية، وهي أثر من آثار سبق رحمة الله لغضبه، وأثر من آثار سعة رحمته، وهي في الوقت ذاته بوابة أملٍ لكل من يخطيء أو يذنب، وحقٌ على الناصح لنفسه أن يحرص إذا أخطأ أو قصر أن يبادر إلى حسنة تمحو السيئة التي قبلها، وأن يفتش – ما استطاع – في الأعمال التي تمحو سيئاته؛ فإن الحديث عامٌ في جميع الذنوب.

ولقد ورد في النصوص الشرعية ما هو ماحٍ ومكفر للذنوب التي لا يكاد يسلم منها أحد:

١- فالصلوات الخمس من أعظم الحسنات الماحيات للذنوب، لا سيما إن أقيمت بشروطها وأركانها وواجباتها.

٢- الحج المبرور.

٣- التوبة.

القاعدة الثامنة عشرة: ما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر

هذه قاعدة من قواعد تربية النفس على الفضائل، ودفع غوائل المكاره، وبالصبر والاحتساب تخف وطأة البلاء، بل وربما انتقل العبدُ منها إلى درجة أخرى من درجات العبودية، وهي درجة الرضا عن الله، وقد يرتفع أكثر لينتقل إلى عبودية الشكر على ما قضاه الله وقدره.

إن الصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين: الأولى: تتعلق بطبيعة الحياة الدنيا؛ فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار، بل جعلها دار تمحيص وامتحان. وما دامت الحياة امتحانًا فلنكرس جهودنا للنجاح فيه. وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان: فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله، وإذا كانت صلات الصداقة بين الناس لا يُعتد بها، ولا يُنوه بشأنها إلا إذا أكدها مُرُّ الأيام، وتَقَلُّبُ الليالي، واختلافُ الحوادث؛ فكذلك الإيمان، ولا بد أن تخضع صلتُه للابتلاء الذي يمحصها، فإما كشف عن طبيعتها، وإما كشف عن زيفها. إنما كان الصبر أعظم العطايا لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر.

إنّ من أعظم ما يعين العبد على الصبر والتصبر أن يتفكر فيما أعده الله للصابرين من الثواب الجزيل وحسن العاقبة في الدنيا، فلا بد من بذل الجهد والمشقة، مع سؤال الله تعالى والتضرع له أن يبلغك مدارج الصابرين؛ فالصبر إذن يحتاج منا إلى صبر!

القاعدة التاسعة عشرة: من حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُهُ ما لا يعنيه

أصل عظيم من أصول الأدب، ومعناها أن من حسن إسلام الإنسان وكمال دينه أن يترك الخوض فيما لا يعنيه من قول وفعل، ومعنى (يعنيه): أنه تتعلق عنايته به، ويكون من مقصده ومطلوبه شرعًا أو قدرًا، فتحديد كون الأمر يعني أو لا يعني مردّه الشرع والحاجة الكونية، لا الهوى أو النَّفْس. والقاعدة تعم الترك لما لا يعني من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

ومن صور خرق هذه القاعدة في حياتنا اليومية:

١- السؤال عما لا يعني الإنسان من تفاصيل المسائل التي أخفى الله ورسوله شأنهما.

٢- الاشتغال بالمسائل التي لا يترتب عليها؛ مثل مسائل المفاضلة بين الأعيان.

٣- تتبع الصغيرة والكبيرة من خصوصيات الناس.

٤- الانشغال بعيوب الناس من عيب النفس.

القاعدة العشرون: احرصْ على ما ينفعُك، واستعنْ بالله ولا تعجزْ

الأمور النافعة قسمان: دينية ودنيوية، والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية؛ فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى. فمن لم يكن حريصا على الأمور النافعة لم يدرك شيئا، فالكسل هو أصل الخيبة والفشل، ومتى كان حريصا على

الأمور غير النافعة؛ كان ثمرة حرصه الخيبة وفوات الخير وحصول الشر والضر، فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد مِن حرصه إلا التعبَ والعناءَ والشقاءَ. **فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ.** ونهاه عن العجز، وهو نوعان: تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

ومن أصدق ما قيل بعد القرآن والسنة قول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : (قيمة كل امرئٍ ما يحسنه)، فاحرص على أن يكون هذا الذي تحسنه هو مما ينفعك في الدنيا والآخرة، وإياك أن تجعل قيمتك تافهة ساقطة؛ فلا تجعل قيمتك فيما لا تطمع أن تراه في صحيفة حسناتك من اللهو والعبث المحرم.

ومن أعظم ما يعين على اختيار النافع من الأعمال والأقوال والمشاريع:

١- العلم، فإنه يهدي إلى الفرقان بين الأمور النافعة والضارة، وبين النافع والأنفع.
٢- الاستشارة؛ فكم من رأي يبدو للإنسان سداده، ثم بعد الاستشارة يتبين له خلاف ذلك!
٣- أن يعلم العبد أن ما ينفع لفلان من الناس قد لا ينفع لك؛ فالنفوس ليست واحدة، والمواهب والملكات ليست سواء بين الناس. ولهذا كان من حكمة الله أن نوّع بين العبادات في الشريعة، وفي أمور الدنيا كذلك.

القاعدة الحادية والعشرون: من تَشَبَّه بقومٍ؛ فهو منهم

قاعدة في أبواب الاعتقاد والسلوك، وهي قاعدة تبرز عظمة هذا الدين الذي يريد من أهله أن يكونوا أعزة في كل شيء، فلمَ يتشبهون بغيرهم؟

ويدخل في معنى التشبه بالكفار: مضاهاتهم فيما هو من خصائصهم، فدخل في هذا التشبه بهم في الأمور الاعتقادية، والأمور الظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضًا عادات خاصة بهم. وتتسع هذه القاعدة لتشمل النهي عن التشبه بأهل الفسق والضلال؛ خشية أن يكون الإنسان منهم. كما تشمل الحض على التشبه بأهل الصلاح والبر والتقوى؛ عسى الله أن يلحقه بهم.

القاعدة الثانية والعشرون: لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحد مرتين

قاعدة في أبواب الأدب والأخلاق التي تحث المسلم أن يكون يقظًا نبيهًا، وطالما أن هذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة مطلوب في أمر الدنيا؛ فكذا في أمر الآخرة، والتنصيص على (المؤمن) في القاعدة إشارة إلى أن الإيمان كما يحمل صاحبه على فعل الطاعات ويرغبه فيها ويحزنه لفواتها؛ فكذلك يزجره عن مفارقة السيئات، وإن وقعت بادر إلى النزوع عنها، ولم يَعُد إلى مثل ما وقع فيه.

القاعدة الثالثة والعشرون: من عادَى لي وليًّا؛ فقد آذنتُه بالحرب

قاعدة تفيض على قلوب المؤمنين أنهارًا من اليقين والإخلاص لرب يدافع عن أحبابه، ويحمي أولياءه، فإنها قاعدةٌ في الحب! إذ أخبر سبحانه أن معاداة أوليائه معاداةٌ له ومحاربةٌ له، والويل لمن كان

متصديا لعداوة الله ومحاربة مالك الملك؛ فليبشر بالخذلان، وفي المقابل: فمن تكفل الله بالدفاع عنه فهو منصور ولا بد، فهذه سنة الله!

والولي لا يكون وليًا لله إلا بمتابعة الرسول باطنًا وظاهرًا، فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. وليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفورًا لهم؛ بل ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقًا، بل قد يقعون في كبيرة من الكبائر؛ فقد قال الله عن أوليائه المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّـهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

إن معاداة أولياء الله تقع من أربعة أوجه:

١- أن يعاديهم الإنسان عصبية لغيرهم، كما يعادي الرافضيُّ أبا بكر وعمر، وهؤلاء من أخسر الناس حظا يوم القيامة.
٢- أن يعاديهم بمخالفة مذهبهم في الاعتقاد والإيمان، كما يعادي أهلُ البدع أهلَ الحق.
٣- أن يعاديهم باحتقارهم والتنقص منهم؛ فيكون الفعل بهم فعل الأعداء، كما كان بعض الجهال يحصب أويسًا القرني، بل كما كان أبو لهب وزوجته يضعان الأذى في طريق سيد الأولياء صلى الله عليه وسلم.
٤- قد يكون بين الولي وبين الناس معاملات وخصومات؛ فيعاديه لأمور دنيوية، وهذه قد لا يسلم منها أحد.

القاعدة الرابعة والعشرون: مَن غَشّنا؛ فليس منّا

في أدب التعامل مع الخلق، أعلن رسول الله هذه العقوبة النفسية الأليمة لمن يغش الناس في معاملاته وأخلاقه، إذ **الذين يغشون في البيع أو الشراء يرتكبون محظورين: الأول:** العدوان على إخوانهم المسلمين؛ بأخذ أموالهم بغير حق. **والثاني:** أنهم ينالون تبرؤ النبي صلى الله عليه وسلم منهم. فهذه قاعدة جامعة في كل غاشّ؛ في بيع أو شراء، أو علم أو تعليم، أو حكم أو تربية أو نصيحة أو أي معاملة كانت؛ فيحرم فيها الغش والتدليس.

القاعدة الخامسة والعشرون: إنّ الله كَتَبَ الإحسانَ على كل شيء

عمومٌ لا ينخرم منه شيء! فلنلق نظرة على بعض ما يشمله معنى هذه القاعدة الجليلة:

١- الإحسان في عبادة الله، وفي العلاقة مع الله.
٢- الإحسان إلى الخلق من الآدميين، في التعامل معهم، وعلى رأسهم الوالدان، ثم من له حق على الإنسان؛ من قريب وشيخ وجار وصاحب.
٣- الإحسان إلى الخلق من الحيوانات.

ومن أجلِّ أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل.

القاعدة السادسة والعشرون: ما أَنْزَلَ الله داءً إلا أَنزَلَ له شفاءً

إن عموم هذا الحديث يقتضي أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدويةٌ تقاومها، تدفع ما لم يَنْزِل، وترفع ما نَزل بالكلية، أو تخففه! وفي هذا الترغيب في تعلّم طب الأبدان، كما يُتعلم طبّ القلوب!

وفي القاعدة إثباتُ الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله ومشيئته، وأنها لا تنفع بذواتها، بل بما قدّره الله فيها، فإذا نَزَل الشفاء؛ نَفَع الدواء. ومما يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم في أصل الحديث: "وجهله من جهله" ما يقع لبعض المرضى أنه يتداوى من داءٍ بدواءٍ فيبرأ، ثم يعتريه ذلك الداء بعينه فيتداوى بذلك الدواء بعينه فلا ينجع! والسبب في ذلك الجهل بصفة من صفات الدواء!

القاعدة السابعة والعشرون: مَنْ لا يَرْحم لا يُرْحم

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تُنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا وخيرات الآخرة، وفقْدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها؛ فليعمل جميع الأسباب التي تُنال بها رحمته.

والرحمة التي يتصف بها العبدُ نوعان: الأولى: رحمة غريزية، قد جبل اللهُ بعضَ العباد عليها، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميعَ ما يقدرون عليه من نفعهم بحسب استطاعتهم، فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم. **والثاني:** رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبَه على هذا الوصف، فيعلم العبدُ أن هذا الوصف من أجلّ مكارم الأخلاق وأكملها؛ فيجاهد نفسَه على الاتصاف به، ويعلم ما رتَّب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك.

وهذه الرحمة التي في القلوب تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

القاعدة الثامنة والعشرون: ليس الشديدُ بالصُّرَعة

الصُّرَعة، هو الذي يصرع الناسَ ويكثر منه ذلك، فأراد – عليه الصلاة والسلام – أن الذي يقوى على مِلك نفسه عند الغضب، ويردها عنه هو القوي الشديد، فدل هذا على أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأن النبي – عليه الصلاة والسلام – جعل للذي يملك نفسه عند الغضب من القوة والشدة ما ليس للذي يغلب الناس ويصرعهم.

لقد جاء هذا الاهتمام البالغ بأمر الغضب؛ لما يجنيه على صاحبه من جنايات عظيمة إن لم يكظمه ويدافعه. فالغضب مجمع شرور عظيمة، وينشأ عنه من الأفعال المحرمة: كالقتل، والضرب، وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة: كالقذف والسب والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر!

وينبغي التفطن أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد ألا يغضب المسلمُ لأمور دنياه ومعاملته التي يمكن استدراكها، وأما فيما يعود إلى القيام بالحق؛ فالغضب فيه قد يكون واجبا، وهو الغضب على الكفار،

والمبالغة فيهم بالجهاد، وكذلك الغضب على أهل الباطل، وإنكاره عليهم بما يجوز، ولهذا بوّب البخاري – رحمه الله – بابا فقال: (باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله). وقد يكون مندوبًا إليه، وهو الغضب على المخطىء إذا علمت أن في إبداء غضبك عليه ردعًا له وباعثًا على الحق.

القاعدة التاسعة والعشرون: ولْيأتِ إلى الناس الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه

قاعدة في أبواب المعاملة بين الخلق، إنه ميزان عادل منصف ينصبه النبي لكل من يتعامل مع الناس؛ الذين في تنوع أخلاقهم وتفاوت معاملاتهم كما بين السماء والأرض. فكلما أشكل عليك شيء مما تعامل به الناس؛ فانظر هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا؟ فإن كنت تحب ذلك؛ كنت محبًا لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة؛ فقد ضيعت هذا الواجب العظيم.

وإذا كان هذا الأدب مطلوبًا في حق الخلق؛ فهو في حق الخالق سبحانه من بابٍ أولى! كيف تطلب من ربك أن يعطيك ما تحب، وينجيك مما تكره، وأنت مقيم على ما يكره، تارك لما يحب؟

القاعدة الثلاثون: كُن في الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابر سبيل

إن هذه القاعدة تُرشِّد مسير المرء في الحياة، وتحد من شراهة نفسه، وتخلصه من مرض الانبهار الزائف للذّات هذه الحياة الدنيا ومتعها، ليعرف قدرها، ويستعد للتي هي خير وأبقى.

فصاحب الغربة في القاعدة هو الصالح في زمان فاسد بين قوم فاسدين، أو العالم بين قوم جاهلين، أو الصادق المخلِص بين قوم منافقين. والغريب هنا كذلك، هو الغريب في طلب الحق، في زمان تَأَمَّر فيه الهوى، وحَكَم فيه التقليدُ، وطَغَى على أهله التعصب المذموم.

إن من قَصُرَ أملُه أكرمه الله تعالى بأربع كرمات: **إحداها:** أن يقويه على طاعته؛ لأن العبد إذا علم أنه يموت عن قريب لا يهتم بما يستقبله من المكروه، ويجتهد في الطاعات فيكثر عمله. **والثاني:** يقل همومه، وهذا بيّن. **والثالث:** يجعله راضيًا بالقليل؛ لأنه إذا علم أنه يموت عن قريب فإنه لا يطلب بالكثرة، وإنما يكون همُّه همَّ آخرته. **والرابع:** أن ينوّر قلبَه؛ فمن رضي بالقليل، واجتهد في العمل وأخلص؛ استنار قلبُه بإذن ربه.

القاعدة الحادية والثلاثون: إنَّ الله طيّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيّبًا

إن مقياس القبول عند الله ليس بكثرة ولا عدد، بل بصفة ذلك الذي يخرجه الإنسان ويبذله. ولئن كانت هذه القاعدة ظاهرة الارتباط بالشأن المالي؛ فهي تتسع أيضا لتشمل ما هو أوسع من ذلك؛ فيدخل فيها كل الأعمال والأقوال، بل حتى الذوات.

إن الله سبحانه طيبٌ في ذاته، طيبٌ في أسمائه، طيبٌ في صفاته، طيبٌ في أفعاله، طيبٌ في أحكامه. ولمّا كان الله طيبا؛ لم يقبل أن يصعد إليه إلا ما كان طيبا طاهرا من المفسدات كلها.

القاعدة الثانية والثلاثون: مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوء كحاملِ المسك ونافخِ الكير

تحثّ القاعدة على اختيار الصحبة الصالحة والتحذير من ضدهم، أما الجليس الصالح فلن تعدم منه إما علما، أو تنبيها على خطأ، أو دلالة على خير في دينك أو دنياك، أو يحذرك مما يضرك، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق بكلامه وفعاله وسمته وهديه، فإن الإنسان بطبعه مجبول على التأثر بصاحبه، والأرواح جنود مجندة، والناس كأسراب القطا؛ يتبع بعضهم بعضا. وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح – وهي فائدة لا يستهان بها – : أن تكف بسببه عن السيئات والمعاصي؛ رعاية للصحبة ومنافسة في الخير وترفعا عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك ومحبته لك، وفوائد الأصحاب الصالحين لا تُحْصَى. وأما المثَل الثاني، وهو جليس السوء فهو ضرر من جميع الوجوه، لا غُنم فيه، بل كله غُرم وخسارة عاجلة وآجلة. ولهذا فإن من أعظم نعم الله على العبد أن يوفقه لصحبة الأخيار، ومن أعظم صور العقوبات أن يبتليه بصحبة الأشرار.

القاعدة الثالثة والثلاثون: ما زَادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزًّا

قاعدة في باب التعامل مع أخطاء الآخرين معنا، لأن العافي في مقام الواهب والمتصدِّق؛ فيُعَزُّ بذلك. فمعلوم ما يحصل للعافي من الخير والثناء عند الخلق، وانقلاب العدو صديقا، وانقلاب الناس مع العافي ونصرتهم له بالقول والفعل على خصمه، ومعاملة الله له من جنس عمله؛ فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه. **والذي يتعلق بالخلق محصور في قسمين: إيصال نفعٍ إليهم، ودفع ضررٍ عنهم.**

القاعدة الرابعة والثلاثون: نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحةُ والفراغُ

قاعدة في فقه الوقت والعمر، وفي فقه الصحة والعافية، فهي دعوة نبوية إلى التصرف الأمثل والتعامل الأحسن مع نِعم الله على العبد في الزمن والبدن.

إن أكثر الناس قد يقاتل على الغبن في ماله أو وظيفته لِتعلُّق ذلك بأمر معاشه، لكن قلّ منهم من يغتم ويهتم لضياع وقته، أو اغتنام قوة بدنه فيما يفيده وينفعه، ولهذا يقع الغبن في ذلك.

إن من الناس من لا يشعر بالغبن في وقته – وهذا نوع من العقوبة الخفية – ولا يكتفي بهذا، بل تراه لغفلته ينقل غبنه ونقصه وتفريطه في وقته إلى الآخرين من خلال السطو على أوقاتهم، وإشغالهم عن أعمالهم بتافه القول و رديء الحديث، وهؤلاء ممن عظمت منهم الشكوى من الغيورين على أوقاتهم.

القاعدة الخامسة والثلاثون: المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده

والمسلم حين يتصف بهذا الوصف فهو يعلن استسلامه للذي فطر السماوات والأرض، ولأوامره ونواهيه، فهو بهذا يكون كامل الإسلام وجامعا لخصاله ما لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل. والمعنى أن أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله أداءَ حقوق الناس والكف عن أعراضهم.

والأذى الذي يقع من الإنسان نوعان: أحدهما: ظاهر بالجوارح كأخذ المال بنحو سرقة أو نهب. **والثاني:** باطن كالحسد والغل والبغض والحقد والكبر وسوء الظن والقسوة ونحوها، فكله مضر بالمسلم، مؤذٍ له، وقد أمر الشرع بكف النوعين من الإيذاء، وهَلَكَ بذلك خلقٌ كثير.

القاعدة السادسة والثلاثون: كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته

قاعدة في أبواب العلاقات البشرية، كلكم راع في الدنيا، وكلكم مسؤول عن رعيته في الآخرة. والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزِم صلاحَ ما قام عليه وما هو تحت نظره، فكل من كان تحت نظره شيء فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإن وفَّى ما عليه من الرعاية؛ حصل له الحظ الأوفر والجزاء الأكبر، وإن كان غير ذلك طالَبَه كلُّ أحدٍ من رعيته بحقه. **أما رعاية الإمام ولاية أمور الرعية:** فالحياطة من ورائهم، وإقامة الحدود والأحكام فيهم. **ورعاية الرجل أهله:** بالقيام عليهم بالحق في النفقة وحسن العشرة. **ورعاية المرأة في بيت زوجها:** فحسن التدبير في أمر بيته والتعهد بخدمة أضيافه. **ورعاية الخادم:** فحفظ ما في يده من مال سيده والقيام بشغله.

القاعدة السابعة والثلاثون: فاظْفرْ بذات الدين

تتحدث القاعدة عن اختيارات الناس في باب النكاح، فمنهم من يرغب في الزواج من المرأة الغنية؛ لتعينه على طالب الحياة، ومنهم من يرغب في ذات الحسب والشرف والمكانة؛ ليرتفع بذلك شأنه فيعتز بهم من قلة ويتقوى بهم من ضعف. ومنهم من يرغب في ذات الجمال؛ ليمتع نفسه بذلك. ومنهم من يرغب في ذات الدّين والحَصَان؛ إن غاب حفظت غيبته، وإن حضر لم تقع عينه منها على ما يكره. ولا يستريب إنسان أن الشرع لا يمنع من تلمس هذه المقاصد، بشرط عدم إهمال المعيار الأهم الذي لا يصح أن يغيب عن ذهن الباحث عن الزوجة، ألا وهو معيار التدين. ومن المعلوم أن الإنسان لن يجد المرأة الكاملة التي لا نقص فيها ولا عيب! فالكمال لله، وطبع البشر النقص والعيب، ومتى كمُل هو أصلًا من كل نقص حتى يطلب امرأة كاملة؟! وإنما عليه أن يسدد ويقارب، ويتحرى الظَّفَر بذات الدين، ويسأل ربه التوفيق. وما قيل في اختيار المرأة يقال في اختيار الرجل؛ فاظفري بصاحب الدين، ويجب على ولي المرأة أن ينتبه إلى ذلك.

القاعدة الثامنة والثلاثون: لا يأتِي على الناس زمانٌ إلا والذي بعده شرٌّ منه

هذا الحديث من سنن الله في الأمم والمجتمعات، **ويؤخذ منها:**

١- المبادرة لصالح الأعمال، وإن لحقته المتاعبُ والمشاقُ والأتعابُ، ولا يترقب الخلو عن ذلك، فما يأتي بعدُ أشد في ذلك مما في الزمان الذي كان فيه؛ لأن الزمان لا يزال في البعد عن مشكاة النبوة، والقرب من البدع والفتن.

٢- تعظيم قدر السلف من الصحابة والتابعين؛ لأنهم كانوا في تلك القرون المفضّلة.

٣- المؤمن إذا عاش في بيئة غلب فيها الشر أو علت فيها راية المنكر؛ فعليه أن يعقد العزم على أن يكون من المصلحين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حسب الوسع والطاقة، فإنه لا يوجد زمان يخلو من

قائم لله بالحجة على العباد، ولا يخلو زمان إلا ويوجد فيه دعاة للخير وهداة للحق يبصرون الناس في العمى، ويهدون من ضلّ إلى الحق، فكن – يا عبد الله – من هؤلاء!

القاعدة التاسعة والثلاثون: واعلم أنَّ النصرَ مع الصبر

إن الإنسان في الدنيا معرَّض للمصائب والتحولات التي تأتي على خلاف المراد؛ كما قال الله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، فالصبر هو أول باب يؤمر العبد المصاب بطرقه، ثم بعد ذلك يبحث عن الأسباب المشروعة التي تخفف المصاب.

والصبر إذا أطلق فإنه يشمل: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لأن العدو يصيب الإنسانَ من كل جهة. ومن تأمل عموم الأوامر والنواهي في الشريعة؛ وجد أنه لا يحركها شيء كالصبر!

القاعدة الأربعون: القرآنُ حجةٌ لكَ أو عليكَ

الحجة على من تعلمه فأغفله أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع؛ كان القرآن حجة عليه وخصمًا لديه. ويكون القرآن حجة للإنسان إذا درس القرآنَ بحضور فهم وعقل، همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله من اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى.

القاعدة الحادية والأربعون: كلُّ الناس يغدو فبائعٌ نفسه؛ فمعتقُها أو موبقُها

قاعدة تُجَلِّي حقيقة هذه الحياة التي نعيش فيها، إننا جميعا نمشي ونتحرك؛ فمنا من يتقدم، ومنا من يتأخر، لكن كما قال الله عن مساعي الخلق جميعا: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾، وهذا معنى قوله: (كل الناس يغدو). فالدنيا سوق كبير، وهناك تاجر يربح وآخر يخسر! فأنت واحد ممن يذهبون للسوق العامر؛ هذا يبيع، وذاك يشتري، إنها حركة معتادة وأمر مألوف، والرابح اليوم خاسر غدا، والعكس، لكن الغبن حقا حينما تكون السلعة التي تباع وتشترى هي أنتَ أنتَ أيها الإنسان! (فبائع نفسه؛ فمعتقها أو موبقها). إن الله هو المشترِي، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعةً هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم!

القاعدة الثانية والأربعون: إنَّ الدينَ يُسْرٌ

لقد رسّخ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأصل الكبير وجعله حُكمًا عامًا لا يستثني شيئا، فهو سهل ميسّر في عقائده وأخلاقه وأعماله، بل وفيما يُطلب تركُه. **ويؤخذ من هذه القاعدة عدة قواعد فرعية:**

١- التيسير الشامل للشريعة على وجه العموم.
٢- المشقة تجلب التيسير وقت حصولها.
٣- إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم.

وليس في هذا حجة لمن أراد التملص والتخفف من الأحكام الشرعية، فليس من الدين في شيء تتبع رخص العلماء ولا زلّاتهم، والتيسير في غير موضعه اتباع للهوى لا للهدى!. فالتيسير الشرعي ضابطه النقل لا العقل. وكلما كانت الفطرة سليمة؛ لمست يسر الشريعة.

القاعدة الثالثة والأربعون: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلْيَقُل خيرًا أو ليصمت

من قواعد السلوك، إذ إن أعظم البلاء على العبد في الدنيا: اللسان والفرج وكما أن أبواب الشر الصادرة عن اللسان كثيرة، فكذلك أبواب الخير الصادرة عنه كثيرة، ومن ذلك: تلاوة كتاب الله، وذكره، والنصيحة الحسنة، وتبليغ دين الله، والذب عن عرض مسلم، والشفاعة في الحق، والجدال فيه بالتي هي أحسن، وإدخال السرور على مسلم .. إلخ.

القاعدة الرابعة والأربعون: مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلْيُكرم جارَه

إن إيمان المرء بالله يأمره بالإحسان للخلق، وإيمانه باليوم الآخر وما فيه من أهوال يدعوه لحفظ حقوقهم، وأقربهم له الجار. ولم يحدد النبي صلى الله عليه وسلم صورة معينة من الإكرام، فيدخل فيه كل ما يمكن أن يُكرم به من البِشْر وطلاقة الوجه وبذل الندى وكف الأذى وتحمّل ما فرط منه، ونحو ذلك. فالإكرام إذن ليس معيَّنًا، بل قد يختلف من جار إلى جار، ومن عرف إلى عرف، والواجب أن يصيب الإنسان من الإكرام بحسب المكرَم.

القاعدة الخامسة والأربعون: اعملوا؛ فكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِقَ له

قاعدة تتضمن أصلًا كبيرًا من أصول الإيمان الستة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومرّه، أوله وآخره، وهذا لا يتم إلا بأن يعترف العبدُ أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه عَلِم أعمال العباد خيرها وشرها، وعلم جميع أمورهم وأحوالهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ. وأن الله تعالى ينفذ هذه الأقدار في أوقاتها بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته الشاملتان لكل ما كان وما يكون المحيطتان بالخلق والأمر، وأنه أعطَى العباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم بحسب اختيارهم، لم يجبرهم عليها، ويقع عليها الحساب والجزاء.

إن هذه القاعدة تشير إلى أن من وجَّه وجهه وقصده لربه حبَّب إليه الإيمان وزيّنه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين؛ فتمت عليه نعمُ الله من كل وجه. وأن من وجّه وجهه لغير الله وتولّى عدوه الشيطان؛ لم ييسره لهذه الأمور. بل ولّاه الله ما تولى، وخذله، ووكله إلى نفسه، وليس له على ربه حجة؛ فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية، ولكنه اختار الضلالة على الهدى فلا يلومنّ إلا نفسه.

القاعدة السادسة والأربعون: خيرُكم خيرُكم لأهله

حسن العشرة مع الأهل من جملة الأشياء المطلوبة في الدين، وقد يُوفّق بسبب هذه الخصلة لسائر الصالحات حتى يصير خيرًا على الإطلاق. ففيها تنبيه على أن أعلى الناس رتبة في الخير وأحقهم بالاتصاف به هو من كان خير الناس لأهله؛ فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشر وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضر. ومن جملة الإحسان إلى الأهل مراعاة ما يلي:

- المعاشرة بالمعروف، أي: بحسب الأعراف التي لا تخالف شرعا.
- التغاضي والتغافل في كثير من الأحيان، وعدم تعقب الأمور صغيرها وكبيرها.
- أن تغار عليهم في دينهم وعرضهم غيرة خالية من سوء الظن وألاعيب الشك.
- أن تعلِّمهم ما تعلم من أمور دينهم، وتستفتي العلماء في أسئلتهم عن حيضهم وصلاتهم ونحوه.
- ألا تكلفهم فوق طاقتهم، خاصة في أيام الحمل، فلا ترهقهم من أمرهم عُسرًا، ولا تطلب منهم ما لا يستطيعونه، ولا تهضم جهودهم وتزد في أوامرك مستغلا ضعفهم وعجزهم بين يديك!
- التوسع بالنفقة عليهم بما لا إسراف فيه ولا عبث.

القاعدة السابعة والأربعون: لا تَحْقِرنّ من المعروفِ شيئًا

من قواعد بناء الخير ونشر المعروف، قاعدة تدعو لأن يبقى المسلمُ عضوًا فاعلًا للخير، متحركًا إلى الإحسان مبادرًا إلى الطاعة، سباقا إلى الفضائل، وأن لا يزهد عن خيرٍ مهما صغر في عينيه، ولو كان بابتسامة في وجه أخيه، أو يلقى أخاه بوجه طلقٍ، فإن عجز عن هذه وتلك، فليكف شره عن الناس! فتلك صدقة، وكل معروف صدقة!

القاعدة الثامنة والأربعون: مَن يَستعفِفْ؛ يُعفه الله، ومن يَستغنِ؛ يغنه الله

جملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة، وتعلقا به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبدًا لله حقًا، حرًّا من رِق المخلوقين، **وذلك بأن يجاهد نفسه عن أمرين:** انصرافها عن التعلق بالمخلوقين؛ بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان؛ تعففا وترفعا عن مِنَنِ الخلق وعن تعلق القلب بهم سببٌ قويٌ لحصول العفة. وتمام ذلك أن يجاهد نفسَه على الأمر الثاني، وهو الاستغناء بالله، والثقة بكفايته؛ فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود. والأول وسيلة إلى هذا؛ فإن من استعف عما في أيدي الناس، وعما يناله منهم؛ أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله ورجاؤه وطمعُه في فضل الله.

واعلم أن مستعمِل العفاف داخل في زمرة المعاملين لله؛ فإن التعفف يوجب ستر الحال عن الخلق، وإظهار الغنى لهم؛ فيصير معاملًا في الباطن، ويقع له من الربح على قدر صبره وصدقه. ومعنى قوله (يعفه الله): يجعله عفيفا، وهو إعطاء العفة والحفظ عن المناهي. فالقاعدة فيها الترغيب في السعي والعمل

وطَرْق الأسباب المشروعة لكسب الرزق بشرف وكرامة وعزة نفس، كما أنها تشير إلى محاربة التسول والبطالة، ولذا أوجب السعيَ والعمل والحركة، ولو كان شاقًّا!

القاعدة التاسعة والأربعون: أُنظُروا إلى مَن هو أسفل مِنكم

وتحقيق هذه الوصية بأن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال، وأصناف النعم، فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه، فإنه لا يزال يرى خلقا كثيرا دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثيرٌ منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيه من عافية ومال ورزق وخَلْقٍ وخُلُقٍ؛ فيحمد الله على ذلك حمدًا كثيرًا.

ومن شاهد زينة الدنيا: إما أن يقوَى دينُه ويقينُه؛ فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا؛ فيهلك هلاكا مؤبدا! أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات؛ فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له، وأما في الآخرة فإيثاره متاعَ الدنيا على ذكر الله والتقرب إليه.

القاعدة الخمسون: إذا مات الإنسان؛ انقطع عملُه إلا من ثلاث

الدنيا دار العمل، وقد جلعها الله مزرعة للآخرة، فمن زرع هنا حصد هناك. من زرع خيرا حصد أضعافه، ومن زرع شرا فلا ينتظر أن يحصد غير ما زرع، وما ربك بظلام للعبيد؛ فينبغي للعبد أن يبحث عن أكبر نصيب له من هذه الأسهم الثلاث: الصدقة والعلم والذرية الصالحة. وهذه الأسهم بتنوعها تكشف عن جانب عظيم في الإسلام، وهو الشمول والتنوع: **ففي ذكر (الصدقة الجارية)** دعوة لاكتساب المال من طرقه المباحة، وثناء على الباذلين **وفي التعبير بـ(الجارية)** إشارة إلى أهمية العناية بالمال الذي يتعدى نفعه.

وفي ذكر (العلم) وتقييده بالنفع حثٌّ على طلب العلم الذي ينفع العباد في دينهم ودنياهم، سواءً كان علم الشريعة أم علوم أخرى يحتاجها الناس كالطب والهندسة ونحوها. **أما (الولد الصالح) فلم يعيّن**؛ هل هو ولد الصلب؟ أم الحفيد من جهة الأبناء أو البنات، وهل هو ذكر أو أنثى؟، لكن الذي أشار إليه أن أعظم المنافع التي تُرجَى من هؤلاء، هي: الدعاء.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين